

مجمع الأمثال

2042 - أَشْأَمُ مِنْ غُرَابِ الْبَيْتِ .

إنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للذُّجعة وقَعَ في موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم فتشاءموا به وتطيروا منه إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر صافي العين حتى قالوا : أصفى من عين الغراب كما قالوا : أصفى من عين الديك وسموه " الأعور " كنايةً كما كنوا طيرةً عن الأعمى فكنوه " أبا بصير " وكما سموا الملدوغ والمنهوس " السليم " وكما قالوا للمهالك من الفيافي " المفاوز " وهذا كثير ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغُرْبَة والاعتراب والغريب وليس في الأرض بآوِج ولا نَطِيح ولا قَعِيد ولا أَعْصَب ولا شيء مما يتشاءمون به إلا والغُرَابُ عندهم أنكدُ منه ويرون أن صياحه أكثر أخباراً وأن الزجر فيه أعمُّ قال عنتره : .

خَرِقَ الْجَنْدَاحُ كَأَنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ ... جَلَمَتَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشَّ مُولَعٌ .
وقال غيره : .

وصاح غُرَابٌ فَوْقَ أَعْوَادِ بَانَةِ ... بِأَخْبَارِ أَخْبَارِي فَقَسَّ مَنَدِي
الفِكَرُ [ص 384] .

فَقُلَّتْ غُرَابٌ بِاغْتِرَابٍ وَبَانَةِ ... تَبِينُ الذَّوَى تِلْكَ الْعِيَا فَةُ
وَالزَّجَرُ .

وَهَبَّتْ جَنْوُبٌ بِاجْتِنَابِي مِنْهُمْ ... وَهَاجَتْ صَبَاءٌ قُلَّتْ : الصَّيَابَةُ
وَالْهَجَرُ .

وقال آخر : .

تَغَنَّى الطَّائِرَانِ بَبَيْتٍ سَلَامِي ... عَلَي غُصْنَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَبَانِ .
فَكَانَ الْبَيَانُ أَنَّ بَانَتِ سُلَيْمِي ... وَفِي الْغَرْبِ اغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانِ .
وقال آخر : .

أَقُولُ يَوْمَ تَلَا قَيْدَا وَقَدِ سَجَّعَتْ ... حَمَامَتَانِ عَلَي غُصْنَيْنِ مِنْ
بَانِ .

الآن أعلم أن الغُصْنَ لِي غَمَصٌ ... وَأَنَا الْبَيَانُ بَيْتٌ عَاجِلُ دَانِ .
فَقُمْتُ تَخْفِضُنِي أَرْضُ وَتَرْفَعُنِي ... حَتَّى وَنَيْتَ وَهَدَّ السَّيْرُ
أَرْكَانِي .

فهذا نَمَطُ شعرهم في الغُرَاب لا يتغير بل قد يزجرون من الطير غير الغُرَاب على طريقين : أحدهما على طريق الغراب في التشاؤم والآخر على طريق التفاؤل به . قال الشاعر :

وقالوا : تَغْنِئَ هُدْهُدٌ فوق بَانَةِ ... فقلْتُ : هُدًى يَغْدُو به وَيَرْوَحُ .
وقال آخر :

وقالوا : عُقَابٌ قُلَّتْ : عُقْبَى مِنَ الذَّوَى .
دَنَتْ بِعَدِّ هَجَرٍ منهم ونُزُوح .
وقال آخر :

وقالوا : حَمَامٌ قُلَّتْ : حُمٌّ لِقَاؤُهَا ... وَعَادَ لَنَا رِيحُ الوِصَالِ
يَفُوحُ .

فهذا إلى الشاعر لأنه إن شاء جعل العُقَابَ عُقْبَى خير وإن شاء جعلها عُقْبَى شر وإن شاء جعل الحَمَامَ حَمَامًا وإن شاء قال : حُمٌّ اللقاء والهدد هُدًى وهداية والْحُبَارَى حُبُورًا وحبرة والبان بَيَانًا يلوح والدَّوْمَ دَوَامَ العهد كما صارت الصَّيَا عنده صباية والجنوب اجتنابا والصُّرْدَ تَصَرُّيدًا إلا أن أحداً منهم لم يزجر في الغراب شيئاً من الخير هذا قول أهل اللغة .
وذكر بعض أهل المعاني أن نَعِيبَ الغُرَاب يُتَطِير منه ونَغِيقه يتفاعل به وأنشد قول جرير :

إن الغُرَابَ بِمَا كَرِهَتْ لَمَوَّلَجُ ... بِذَوَى الأَحْبَبَةِ دَائِمُ التَّشْحَاجِ .
لَيْتَ الغُرَابَ غَدَاةً يَنْدُوعَبُ دَائِبًا ... كان الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأوداجِ .
وقول ابن أبي ربيعة :
نَعَبَ الغُرَابُ بِبَيْيْنِ ذَاتِ الدُّمْلُجِ ... لَيْتَ الغُرَابَ بِبَيْيْنِهَا لَمْ
يَشْحَجِ [ص 385] .

ثم أنشدوا في النغيق :
تَرَكَتُ الطَّيْرَ عَاكِفَةً عَلَايَهُمْ ... وَلِلْغُرَبَانِ مِنْ شَبَعِ نَغِيقُ .
قال : ويقال " نَغَقَ الغرابُ نَغِيقًا " إذا قال : غِيقَ غِيقَ فيقال عندها " نغق بخير " ويقال " نَعَبَ نَعِيبًا " إذا قال : غاق [غاق] فقال عندها " نَعَبَ بشر " قال : ومنهم من يقول " نغق ببين " وزهير منهم وأنشد له :
أَلْقَى فِرَاقَهُمْ فِي المُقَلَّاتَيْنِ قَذًى ... أَمْسَى بِذَلِكَ غُرَابُ البَيَيْنِ
قَدَّ نَغَقَا .

وقال من احتج للغراب : العربُ قد تتيمن بالغراب فتقول : هم في خير لا يَطِيرُ غُرَابُهُ أَي

يقع الغراب فلا يُذَفَّر لكثره ما عندهم فلولا تَيَمُّمُ ذُهُمِّ به لكانوا ينفرونه فقال
الدافعون لهذا القول : الغرابُ في هذا المثل السَّوَاد واحتجوا بقول النابغة :
ولرهُمَ حَرَّابٍ وَقَدَّ سَوْرَةٌ ... في المَجْدِ لَيْسَ غُرَابُهَا بِمُطَارٍ .
أي مَنْ عَرَضَ لَهُمْ لِمِ يَمْكَنهُ أَنْ يَنْفِرَ سَوَادُهُمْ لِعِزِّهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ